قراءة في نظرية التأويل التقابلي لـ"محمد بازّي"

ط.د. مرسلي رشيدة. طاهري محمد بشار

مقدمة:

إن البحث عن المعنى كان، ولازال، وسيبقى الهم الشاغل للنقاد، والمؤوّلين، ذلك أنّه هو أساس التعامل في الحياة، ولم يقتصر البحث عن المعنى على النصوص الفنية، بل هو الشغل الشاغل لكل باحث عن الحقيقة والعلم؛ إذ كانت محاولات تأويل وفهم النص أو الخطاب من أولويات النقاد، وقد نشأت عدة مناهج، وأفل نجم مناهج أخرى بعد فشلها في الوصول إلى مبتغى الباحثين فيها، وكل منهج له أسس وأطر تحدّد له طرق البحث، والتفسير، والتأويل، وقد كان العرب، والغرب على حدّ السواء، في هذا المجال إلا أنّ قطار التطور، والعمل كان حليف المناهج الغربية، ردحاً من الزمن، وسعى العرب إلى إتباع آثارهم الحذوة بالحذوة، محاولين بذلك تدارك الركب، والعمل على وضع بصمتهم النقدية، وتجد أغلب النقاد يتحسرون على ضياع إرثهم النقدي؛ الذي لم يستطيعوا مواصلة رسالته، والسير في دربه قُدُماً، الأمر الذي جعلهم يحاولون إعادة بعث المشروع النقدي العربي من جديد، أو حتى تقديم الجديد في مجالهم هذا، إلا أنّني وجدت مع الناقد محمد بازي هذه المبادرة؛ التي عمل عليها لسنوات؛ إذ أسس نظريته الجديدة في التأويل، أطلق عليها **التأويل التقابلي**، وحاولت من خلال هذه الورقة البحثية، أن أجيب على هذه الأسئلة التي شغلتني أوّل ما قرأت له أهم كتابين حول هذه النظرية، فما هو هذا النوع الجديد من التأويل؟ وهل يصلح لأن يطبق على الخطابات الفنية؟ وما هي أسسه التي وضعها له؟ وهل استمد الناقد جذوره من التأويل العربي؟ أم هو امتداد للتأويل الغربي؟

1. مرحلة التأسيس:

حاول **محمد البازي** أن يؤسس نظرية جديدة في التأويل؛ انطلاقا من رؤيته للنصوص والخطابات، فهي انعكاس لما حوله من الأقوال، والأفعال؛ إذ يرى أن هذه النصوص تعبّر عن قدرة مبدعيها على جعل العالم من حولهم ينعكس داخل متونهم "فإن التقابل في النصوص الإنسانية، يعكس تقابل الكون البديع"[1] ويرى أن هذا التقابل يأتي من اكتشاف الإنسان لأسرار الكون والتقابلات التي أوجدها الله سبحانه وتعالى في العالم، مما يكشف عن عظمة إبداع الخالق، والتي تتجلى في مخلوقاته.

ويرى بأن كل المعاني الموضوعة تحت ثنايا الكلمات داخل البنية العميقة للنصوص، لابد وأن يكون لها انعكاس في البناء السطحي له، والمؤوِّل لا يمكن أن يصل دائما إلى هذه المعاني المتخفية في المعنى، ولا يمكنه الظفر به بأسهل الطرق، بل لابد من عناء؛ ذلك أنّه يتحتم على المؤوِّل وضع الافتراضات والبحث عنها، ومحاولة رصد كل ما يؤدي إلى اكتمالها داخل النص، مستعيناً في ذلك باللغة "فالمعنى موجود بقوة في اللغة وفي إمكانيات التركيب، والنظم وهو مثل النار في الحجر لا تنقدح حتى يقدحها قادح."[2]

وقد وسّع من دائرة التأويل، لتشمل كل ما يمكنه أن يرتبط بالنص المراد تأويله، من سياقات تاريخية، وأدبية، ونقدية، وغيرها من المراجع، التي يمكن أن تندرج تحتها المعاني المدسوسة داخل النص، فهو لا يرى بدأً من الاستعانة بالمناهج الأخرى، والعمل ببعض أسسها، ولا يرى في ذلك عيبا يعيب نظريته، فالتشابه الحاصل بينها، وبين هذه المناهج "لا يعني المحو و الاتكالية، وكثير من المناهج تتشابه وتلتقي في محاور معينة، لأنها تأسست من أجل مطلب واحد؛ هو قراءة النص الأدبي وغير الأدبي"[3] والمناهج سواء كانت نصية أو نسقية تعتمد على جماليات التلقي والتأويل.

---

[1] محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي (مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب)، دار الأمان، الرباط، منشورات الاختلاف، الجزائر، منشورات ضفاف، ط1، بيروت، 2013، ص17.

[2] المصدر نفسه، ص18.

[3] المصدر نفسه ، ص21/20.

لكن نظرية **بازي** تعتمد على التقابل بين النص والعالم الذي انطلق منه؛ لذا يرى أنه من حقه في هذه النظرية، أن يرجع في تأويله إلى كل ما يرى فيه مرجعاً يساعده على فهم طبيعة النص، وطبيعة التقابلات المعنوية الموجودة داخله.

وقد أعطى تعريفاً شاملاً لهذه النظرية، حاولت تقديم نصه كاملاً للقارئ حتى يتسنى له فهم مراد الكاتب من هذه النظرية الجديدة "للتأويل التقابلي استراتيجية قرائية لصناعة المعنى، يمكن الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات وتفهيمها، وهي اختيار إجراء أسسه محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويل عبر مواجهتها وجها لوجه لإحداث تجاوب ما أو تفاعل معرفي أو دلالي وتأويلي"[1] وينبني التأويل التقابلي على الجمع بين العناصر، والدرجات الذهنية؛ أي المقابلة بين الكيفيات التي تشكل الخطاب من ناحية، وعمل الذهن الذي يبحث عن معاني وعن العلاقة المحتملة بين النص وسياقه، فالمعاني لا نصرح بها إلا بعد أن تتشكل في أذهاننا؛ تشكلا تقابليا، فلكل الأشياء ما يقابلها سواء بالتضاد، أو بالتجاور، وبما يكمّلها أو حتى ما يشرحها، وهذا يحدث أيضا أثناء إنتاج الخطاب، فالمؤلف يتخيّر ألفاظه وينتقيها من بين عدّة خيارات، وهذا هو التقابل في المعاني المقصود؛ إذ ينتقيها من بين الألفاظ التي تتجاور أو حتى التي تتضاد فيما بينها، والمتلقي انطلاقا من هذه التقابلات يحاول إيجاد المعاني التي يمكن أن يصل بها إلى فهم الخطاب وتأويله.

ولبناء المعنى، داخل الخطاب المراد تأويله، يمكن أن نجد عدّة تأويلات؛ ذلك أنّه "ما من عوالم أو أحوال يتحدث عنها النص أو الخطاب، إلا وفي عالم القارئ ما يغنيها ويوسعها ويقابلها، بأي شكل من أشكال التقابل، ظاهراً أو مقدراً، معلناً عنه أو نجتهد في تحصيله عبر أفعال التأويل"[2] لهذا لكل قارئ رؤيته وتأويله الذي يعيد به بناء المعنى للخطاب المؤوَّل من زاويته التي تقابل هذا المعنى داخل الخطاب، وقد رأى **محمد بازي** أنّ هذا التقابل مستخلص من التقابلات التي أوجدها الله سبحانه وتعالى، وقد أسماه بالتقابل الكوني الذي

---

[1] محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي)، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، لبنان، 2010، ص09.

[2] المصدر نفسه ، ص11.

جعله أساس عملية الكتابة، والتواصل، ومنه تتشكل عناصر الخطاب، وهي التي تضفي عليه فنيته وجماليته.

2. الخطابات التي حقّقت للبازي نظريته:

من أجل فهم المعاني التي تناثرت داخل النص أو الخطاب، طبّق البازي **نظرية التأويل التقابلي** على الكثير من الخطابات، محاولا في ذلك الرجوع الى قصدية الخطاب الأولى، وقد حاول محمد بازي في كتابه الأول **"تقابلات النص وبلاغة الخطاب"** تطبيق هذه النظرية أولاً على الخطاب القرآني، وقد اختار سورة الفاتحة [1] وخصّص لها فصلاً أطلق عليه عنوان **"بلاغة التقابل في الخطاب القرآني سورة الفاتحة"** انطلق في تأويله من رصد المعاني المقابلة للألفاظ التي يريد تأويلها دون تحديد لطبيعتها وقربها من هذا اللفظ؛ محاولاً الوصول إلى فهم عميق لدلالة العبارات؛ فهم لا يسلك فيه طريقاً واحداً، بل يسلك له اتجاهات مختلفة، متكئاً على ما تُتيحه له الدلالة المعجمية التي تنتمي إليها العبارة، أو يمكن التوسع في هذا التحديد ليشمل السورة بأكملها "لو حاولنا فهم الأشياء بمقابلاتها سواء كانت مرادفة أو مضادة، ظاهرة أو خفية، فإنّ المكونات المعجمية في هذه السورة تمنحنا إمكانيات هائلة، وهكذا فلن نسير في منحى خطي، على غرار التفاسير، بل نتقدم في جميع الاتجاهات التأويلية بهدف إثراء القراءة"[2] ليعطي القارئَ تأويله الخاص لهذه السورة بعيداً عن التفاسير التي سبقته لها، غير بعيد عن المعنى الحقيقي، وإن كان يستعين بتفسير القرآن الكريم لعلماء أجلاء، أمثال الغزالي في كتابه "جواهر القرآن" حتى لا يخرج بتأويله عن الإطار العام المسموح به في الشريعة الإسلامية، ويكون بذلك قد وضع لهذا التأويل حدوداً والتزم بها.

وقد خلص في هذا الفصل القصير نوعاً ما، إلى أنّ النص القرآني ثري وغني بتقابلاته، وقد حقّق له مراده، إذ وجد أن هذه النظرية وجدت طريقها فيه، فيقول: "من وجوه بلاغة الخطاب القرآني قوة معانيه المتقابلة بشكل بديع ورائق، وعبر التأويل التقابلي يمكن عرض الحقائق والأحوال والمعاني الظاهرة والخفية عرضاً وافياً، بغرض الإفادة والإيضاح

[1] يُنظر، محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي)، ص 13.

[2] المصدر نفسه ، ص18.

والتفهيم"[1] وهو يشيد بالنص القرآني وبإعجازه، الذي يجعل منه نصاً قابلاً لكل أشكال التأويل، سواء كانت لغوية أو بيانية أو دينية، وهذا ما شجع الكاتب إلى خوض هذه التجربة عل سورة الفاتحة.

أمّا الفصل الثاني قد خصّه لكتاب من كتب العالم الجليل " **أبو حامد الغزالي**" وقد أسمى هذا الفصل بـ**"التقابل وبلاغة الحجاج في كتاب إحياء علوم الدين للغزالي"** [2] لقد شرح لقارئه الأسباب التي جعلته يختار هذا الكتاب لتطبيق نظريته، أسباب جمالية وهي سّر تعلقه بكتابات الغزالي؛ إذ يرى أنّها تمتلك بلاغة خفية، سحر بها قراءه وجعلهم يتعلقون بكتبه، ويرى أنها كتب جمعت بين جميل العبارة، وبلاغة الفكر ورقيّه، فتقدّم للقارئ ثراء في الفكر والتصوّر حول كل ما يتعلق بالإنسان، سواء في الدين أو في كل مناحي الحياة.

ولعل أهم ما أثار الكاتب في كتاب الغزالي هذا، هو الطريقة التي نسج بها هذا المؤَلَف، طريقة تخدم توجه الكاتب بشكل كبير، وتتقاطع مع نظريته؛ إذ "انطلق الغزالي في تأليفه للكتاب من نسق تصوري واضح قائم على التقابلات، ولذلك رتبه على المواضيع المحورية التالية: العبادات مقابل العادات، المُهْلِكات مقابل المُنْجِيات"[3]، وهو لم يحاول من خلال هذه الدراسة أن يدقّق في المضامين، أو يتحرّى عن توافقها مع الشريعة؛ لأنّه يرى أنّ هذه الأمور لها أهلها الذين يشتغلون عليها، ولكنّه يرنو إلى تحليل تماسك هذا الخطاب ولغته الحجاجية، ورصد التقابل في طرح **المعاني والأسرار والمقاصد**، خاصة وأنّ هذا الكتاب يعتمد على هذه النظرية في بنائه الكلّي، وقد أقدم الغزالي على هذه البنية التأويلية التقابلية، دون أن يقصد إليها متعمداً؛ وإنّما هي مجموعة ملاحظات اكتشفها كاتبنا، خلال تحليله لهذا الخطاب؛ إذ وجد عملية تأليف هذا الكتاب نُسِجت على هذا المنوال دون قصد مباشر من الغزالي، فوقف على عملية صناعة هذا الخطاب، وأعاد طرحها لقارئه؛ بغية تقريبه من مقاصد الغزالي في تأليفه لكتابه "من الملامح الأولى لسمات التقابل المركزي هو طريقة التقسيم، ومنهجية التأليف التي تعكس تصوراً شمولياً واضحاً لموضوع الكتاب؛ وهو

---

[1] محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي)، ص30.

[2] المصدر نفسه ، ص31.

[3] المصدر نفسه ، ص32.

يتوزع على أربعة أرباع: ربع العبادات مقابل ربع العادات، وربع المهلكات مقابل ربع المنجيات. وكل ربع يتكون من عشرة كتب، والأرباع الأربعة تكوّن وحدة متكاملة لروح الشريعة الإسلامية في مقاصدها وأسرارها"[1]، ويبيّن لنا **بازي** أنّ هذا الكتاب لا يقوم على التأويل الباطني، وإنّما هو كتاب تعليمي يقصد فيه متلقٍ من نوع خاص؛ ذلك المتلقي العادي، حيث يبسِّط له مقاصد الشريعة، بواسطة الشرح والتحليل بتقديم أمثلة، تعتبر مقابلات للمعاني، حتى يسهل عليه استيعاب هذه المقاصد، وفي نفس الوقت يوجّه خطابه إلى ذلك العالم الذي يختلف معه، فتصبح هذه التقابلات حججاً وأدلة، يقيمها الغزالي على معارضيه.

ومن أهم الحجج التي دعّم بها الغزالي خطابه، نجد التقابل التمثيلي الذي اعتمده في جلّ كتبه، وقد صرّح بازي أنّه هو من اكتشف سر صناعة[2] هذا الخطاب، رغم تطرق العديد من الدراسات لمؤلفاته، إلّا أنّ أصحابها لم يتفطنوا لهذا الأمر. وقد قدّم الغزالي أمثلة عن كل ما كان يريد شرحه، بغية تقوية المعنى، وتقريبه، وجعله واضحاً جليّا للقارئ.

وقد قدّم دراسة شاملة لهذا الكتاب، حاولت الوقوف على أهم النقاط فيها، وإن كنت أرى أنه من الأجدر الاطلاع على هذا الكتاب القيّم، خاصة وأنّه متوفر على شبكة الإنترنيت، وذهبت إلى أهم ما خلص إليه الكاتب من هذه الدراسة، وقد رأيت أن أضعها في نقطتين مختصرتين:

- عدم اقتصار الغزالي على تأويل مظاهر الكون وأسراره، بل تعداها إلى تأويل نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة، يستهدف فيها شريحتين من المتلقين، الإنسان العادي، والعالم الخبير، قدّم لهما حججاً مقنعة ومقابلات دقيقة، تجعل خطابه حجاجياً حاول من خلاله الوقوف على معاني ومقاصد الشريعة.
- ويقدم **بازي** مجموعة من النصائح للنقاد، في العودة إلى الكتب النقدية العربية القديمة، والحفر فيها و استخراج المعارف و الكنوز و جواهر نقدنا دون العودة إلى ترجمة الغرب لأعمالنا.

---

[1] محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي)، ص34.

[2] يُنظر، المصدر نفسه ، ص46.

أمّا الفصل الثالث فقد اعتمد فيه على تطبيق نظريته على الخطاب الشعري، أطلق عليه العنوان التالي: **التقابلات النصية وأثرها في بلاغة الخطاب الشعري (مقاربة تأويلية تقابلية لمرثية مالك بن الريب التميمي)** محاولاً التجريب على نص مغاير تماماً لنص الغزالي؛ ذلك أنّ الشعر يتميّز بمجال للكتابة محدود، لاعتماده على المختصر من الكلام، والتكثيف والإيحاء، كلّها عناصر وآليات يشتغل عليها الشاعر، قصد بناء نص يتّبع ميزاناً موسيقياً معيّناً، ومتماسكاً ودالاً في نفس الوقت، وهو أكثر الخطابات التي تعتمد على آليتي الظاهر والباطن (المسكوت عنه)، وبالتالي هو خطاب دسم - إن صحّ التعبير- بالنسبة **لبازي** ؛إذ حاول فيه تطبيق أسس نظريته في التقابل، بقصد طرق بعض الأبواب الموصودة، في هذه القصيدة ، بمفاتيح التأويل التقابلي، وقد أشرت إلى هذا الفصل دون الخوض في تفاصيله؛ ذلك أنّه اعتمد فيه على التحليل والتأويل انطلاقاً من "الثنائيات والتقابلات التي تتأسس عليها الحياة والوجود، ثم يتأسس عليها بعد ذلك القول الشعري في أبعاده المختلفة"[1] واهتمامه بالشعر يبدو أنّه لم يتوقف عن النص السابق، بل وجدته حتى في الفصل الرابع، تحت عنوان: **تقابلات النص وبلاغة الخطاب الشعري الحديث، قصيدة "نسر" لعمر أبي ريشة تمثيلاً (مقاربة تأويلية تقابلية)** وقد حاول في هذا الجزء أن يحلّل القصيدة وفق عدّة معايير تقابلية أهمها: "النص والسياق، مواقع القارئ الاعتبارية ومواقع المنتج الاختيارية، النص والتاريخ، النص مقابل نصوص أخرى موازية، تقابل النص والموسوعة والمعرفة الخلفية،...."[2] هي معايير وقف من خلالها على أسرار النص، وحاول فتح مغاليقه، واكتفيت بهذا القدر، تاركة المجال مفتوحاً أمام القارئ ليغوص بعيداً في هذا الكتاب الممتع والمتنوع، كتاب يمنح لقارئه تجربة ناقد فذ حاول من خلالها، تخطي الحدود وكسر الحواجز، ليصل إلى مناطق مظلمة من النصوص ليعيد لها بريقها ويعيد لها الأمل في الحياة.

---

[1] محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي)، ص106.

[2] المصدر نفسه ، ص110.

ويختم كتابه بأن التقابل التأويلي منفتح على غيره من المناهج، وليس منغلقاً على ذاته، "إنّه يؤمن بالأخذ والعطاء، وتبادل الجهود، واستعارة الأدوات التحليلية إذا تطلب الاشتغال على النص ذلك"[1]، دون أن تحيد هذه الاستعانات عن المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه هذا النوع من التأويل، وهي تتبع التقابلات انطلاقاً من الترابط الموجود بين عناصر النص.

وهو لا يلزم القارئ بآليات جامدة وثابتة في قراءته للنصوص، بل يرى أنّ لكل نص قراءاته الخاصة به، ولكل قارئ حرية اختيار مفاتيحه الخاصة به، وحتى النظرية التأويلية في حدّ ذاتها مفتوحة للاجتهاد والتجديد، وهو بذلك يجعلها أكثر مرونة في يد النقاد.

ولعل ما استوقفنا هو رأي الكاتب في الأخير الذي قدّم فيه المجال الأنسب لاشتغال نظريته فيقول: "وأخيراً، فالتأويل بالتقابلات أداة إجرائية ناجعة في المجال التربوي والتعليمي، خاصة فيما يتعلق بقراءة النصوص وتحليل الخطابات الدينية، أو الأدبية، أو الفكرية، أو الفلسفية المدروسة، لما له من قوة قرائية وتفهيمية وتبسيطية، توقِف الطلاب على المعاني، وكيفية صناعتها واكتشاف أسرار جمالها وبلاغتها"[2]، نظريته تعتمد على التقابلات والأمثلة والحجج الموجودة داخل النص، تعين القارئ على الوصول إلى الفهم التام أو الاقتراب منه، وبواسطتها يكتشف عوالم أخرى، تشارك في صناعة الخطاب.

3. مرحلة التنظير:

في الكتاب الأول عمل محمد بازي على نماذج متنوعة، حاول تطبيق نظريته عليها، أمّا كتابه الثاني **نظرية التأويل التقابلي** حاول التنظير بشكل مفصّل لهذه النظرية، انطلاقاً من فرضيات وضعها، وقوانين سطّرها، كلّها تشتغل عل النص أو الخطاب، وقد عمد إلى وضع "إستراتيجية المنهج وآلياته، ومعرفة مرجعية تبين الأسناد والخلفيات التي تأسس عليها البناء النظري"[3] وبهذا أحاط بنظريته، وأسس لها بكل ما يساعد الباحث المؤوِّل على الاشتغال على النصوص، وهو في هذه النظرية يعطي للتعالقات النصية، أهمية حيث يرى

---

[1] محمد بازي، تقابلات النص وبلاغة الخطاب (نحو تأويل تقابلي)، ص171.

[2] المصدر نفسه ، ص176.

[3] المصدر نفسه ، ص 41.

في قدرة المؤوِّل على استخراجها، واستخدامها في التأويل، وهو ما يقدم لنا تأويلاً أفضل من آخر. ولم يغفل عن دور السياقات المقابلة في تقوية المعاني والاستعانة بها في تأويله.

وقسّم كتابه الثاني إلى مجالين، **الأول قسّمه إلى:** سبعة مسالك؛ إذ عالج في كل مسلك قضية من القضايا المرتبطة بالتأويل التقابلي، فبدأ ببحث إستراتيجية التأويل التقابلي، حيث أحاطها بكل ما يمكن أن تستفيد منه، وتتقاطع معه من نظريات ومنهجيات، تعين الدارس في هذا المجال، ولعل أهم ما اشتغل عليه، هو قضية المعنى وحضوره في النصوص المختلفة، قديمها وحديثها، وقد أحاط قارئه بالمرجعيات التي اعتمد عليها في تأسيس نظريته "وهي على الجملة مرجعيات عربية إسلامية قديمة، ومرجعيات غربية حديثة، ودراسات وأبيات عربية حديثة، وقد تعاملنا مع هذه المرجعيات انتقائياً وتجزيئياً، لأننا لا نقدم نموذجاً متناسياً أو منسياً، أو نموذجاً مبتوراً أو قاصراً، وإنّما نتقدم خطوة واسعة..."[1]، ثمّ قدّم للمتلقي الأسس والفرضيات التي بنى عليها نظريته، وقد شكّل عنده التقابل الكوني أهم مصدر لفرضيات التأويل التقابلي، ومنه تنطلق كل التقابلات الموجودة في النصوص بواسطة اللغة.

ولا يشمل التقابل عنده النصَ فحسب، فهو يتوسع إلى ما هو أكبر وأوسع الكون المتقابل، وما يحمله من دلالات على وجود خالق لهذا الكون، فهذا التقابل يصل بالمؤوِّل إلى سّر الخلق، وعظمة الخالق. والنص عند محمد بازي "طيٌّ تقابلي للمعنى، والتأويل نشر وتوزيع للتقابلات المطوية في النص، وربّ قائل يقول: ليست التقابلات وحدها ما يحكم المعنى في النص...التقابل إمّا ملفوظ، وإمّا ملحوظ يبنيه التأويل...والتقابل إمّا حضوري أو غيابي، أفقي أو عمودي، مضموم أو منثور في النص"[2]، ولا يهمل بازي عملية الفهم؛ إذّ تُعدّ عنده مرحلة مهمة في أيّة عملية تأويلية، من خلالها يصل المؤوِّل إلى المعنى المقصود وهو عنده "الهيئة الصحيحة للظواهر والمعاني والتصورات عند المتفهم، فإذا لم تكن صحيحة، ولم تطابق الحقائق الخارجية فهي من الوهم"[3] ويشترط توفر ذاكرة ومعرفة باللغة والتمكن من

---

[1] محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي، ص67.

[2] المصدر نفسه ، ص86.

[3] المصدر نفسه ، ص 106.

آليات العلم بالمعاني؛ للوصول إلى الفهم الصحيح للنصوص. ويقوم فهم النص بالتقابل عند بازي على عدّة عوامل، حاولت الإحاطة بها، فعملية التفكير تكون عن طريق الإبقاء والمحو؛أيّ عند مواجهة النص يقوم المؤوِّل باستحضار كل الأمور التي ترتبط به، وفي هذه العملية يحدث أن يبقيّ الذهن على أشياء تفيده في فهم النص، في حين يُلغي ويمحو أشياء أخرى، إلى جانب خطوات أخرى مساعدة على عملية فهم النصوص، تقوم على إعمال الذاكرة والذهن في استحضار بعض السياقات، التي نتجت عن قراءات مسبقة، حدث وأن احتفظت بها الذاكرة جراء عملية التكرار، وما ينتج عنها من "تمحيص وتدقيق، وتأمل مضاعف في المعنى، ومراجعة وتصويب للمعاني المبنية"[1]، وإلى جانب التكرار تحدث عملية أخرى داخل النص، هي الحذف والتلخيص، وتركيب الأفهام، وهذا ما ينتج عنه **ذاكرة خلفية مقابلة** يستعملها المؤوِّل في فهم النصوص الجديدة، ولم يكن بازي أول من ربط الحذف بالتأويل، فقد سبقه إلى ذلك كثير، أمثال **أبو حيان الأندلسي** (ت.754هـ)؛ ذلك أنّه يرى أنّ التأويل ليس ممكنا ؛ إذ "لا نصير إلى التأويل مع إمكان حمل الشيء على ظاهره، لاسيما إذا لم يقم دليل على خلافه" [2] فذهاب المؤوِّل إلى معنى غير الظاهر من الكلام لا يتّم إلّا باقتران اللفظ بدليل على وجود معنى غير ذلك الذي يظهر للعيان، فلا يمكن له أن يجد المعنى الباطن للفظ لولا وجود مرجع يستند إليه. وعملية الحذف دون أن يترك الكاتب ما يدل على ما حذف، يكون من غير الممكن تأويله تأويلاً صحيحاً، أو على الأقل قريباً من المقصود، وقد كان **ابن جني** (ت.392هـ) أسبق منهما في اهتمامه بالحذف، وبدراسته؛ ذلك أنّه تطرق لأنواع الحذف في كتابه الخصائص، وكان يرى أنَّ للغة العربية شجاعة تكمن في عدّة مَوَاطن، والحذف أحدها؛ إذ يرى أنّ العرب قد حذفت "الجملة، والمفرد، والحرف، والحركة، وليس شيء من ذلك إلّا عن دليل عليه، وإلّا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب

---

[1] محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي، ص106.

[2] أبو حيان الأندلسي الغرناطي محمد بن يوسف (ت.754هـ)، البحر المحيط في التفسير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص494.

في معرفته." [1] وما يميّز الحذف هو أنّه يعطي للمفسِّرين والنحاة أفقاً واسعاً للتأويل والإعراب؛ من أجل الوصول إلى المعنى المراد.

ويعطي **بازي** للأفهام أهمية في عملية التقابل، ويرى أنّها تنقسم إلى قسمين اثنين: أفهام صحيحة وأفهام مغلوطة، يشترك فيها البشر، ويمكن أن نربط بين فكرة **"الأفهام المغلوطة"** بما يعرف **بسوء الفهم لشلايرماخر**، الذي يرى في معرفة المؤوّل لتاريخ وظروف المبدع عاملا مشاركاً في عملية الفهم؛ لأنه يعتبر أنّ الزمن قادر على طمس دلالات الألفاظ عندما تكون المسافة بين المؤوّل، وزمن إنتاج الخطاب مسافة شاسعة؛ أي أنّ الخطاب كلما اتسعت الهوّة بينه وبين متلقيه، يصبح فهمه أمراً صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، وهذا ما أطلق عليه شلايرماخر **بسوء الفهم**.

ومن ناحية أخرى فإنّ **"بازي"** لا يهمل أمراً آخر - لا يقل أهمية عن الذاكرة وكل ما يتعلق بها- السياق في عملية التقابل هذه، التي تؤدي بدورها إلى الفهم الصحيح للنص، فالسياق متمثل في الظروف المساعدة على إنتاج النص، ويرى أنّها مهمة جداً في عملية الفهم. ويقسم السياق إلى قسمين:

- السياق الداخلي: ويطلق عليه اسم المساق.
- السياق الخارجي: ويسميه التساوق.

ويخرج باستنتاج مفاده أن معنى النص في تأويلية التقابل هو "جميع مكوناته النصية متضافرة، معجمياً، وصرفياً، وتركيبياً، إلى جانب متعلقاته السياقية، وكل المواد التي تساهم في الفهم من قرائن ونصوص، وعمليات ذهنية تأويلية"[2]، ومن بين من تطرق لهذا في الدراسات الغربية **شلايرماخر**، ذلك أنّه يقترح عملية **"إعادة البناء"** (**reconstruction**)[3]؛ من أجل الوقوف على تاريخ إنتاج هذا الخطاب محلّ التأويل؛ إذ يُعيد

---

[1] ابن جني أبو الفتح عثمان (ت.392هـ)، الخصائص(ج2)، ت: محمّد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، د.ط، بيروت، د.ت، ص360.

[2] محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي، ص 108.

[3] يُنظر،غادامير هانز جورج، الحقيقة والمنهج (الخطوط الأساسية التأويلية فلسفية)، تر: حسن ناظم/ علي حاكم صالح، دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية، ط1، ليبيا ، 2007، ص 251.

بناء الخطاب وفق الظروف المساعدة على إنتاجه؛ فيرى أنّه بالإمكان التوفيق بين القصديتين تلك الخاصة بالمبدع / والأخرى بالنص؛ لذلك فإعادة البناء هذه تتم وفق بيئة المبدع الأصلية،

والثاني قسّمه إلى سبع تنزيلات:

يعود بالقارئ إلى النص القرآني محاولاً الوقوف على البنيات العميقة انطلاقاً من البنيات السطحية، وقد أسمى الأولى **التقابلات الهدف** فيما أطلق على الثانية **التقابلات المنطلق**، وكانت النصوص التي طبّق عليها هذه النظرية، عبارة عن آيات قصيرة من القرآن الكريم {الآية 46/45} من سورة الكهف، وقد كانت التقابلات المنطلق لهذا النص تتمثل في بعض التفاسير الموثوقة والمعترف بها لدى علماء الدين، وحرص على الابتعاد عن كل ما يتعلق بالتأويل الشخصي أو المذهبي لآيّ القرآن الكريم،إلى جانب اعتماده على تقابلات منطلق من نوع آخر مرتبطة باللغة والبلاغة والنحو، قصد الوصول إلى التقابلات الهدف لهذا الخطاب. ويحاول التأكيد على أنّ الخطاب في النص القرآني مغاير لبقية الخطابات؛ لذا لا يمكن للمؤوّل أن يقف أمامه خالي الوفاض، بل يجب أن يكون لديه بعداً معرفياً، يؤهله لمثل هذه القراءات، كما أنّه يثني على التفاسير وعلى منهجيتها في التفسير والتأويل؛ ذلك أنّه يرى أنّه قائمة على مبدأ التأويل التقابلي، حتى وإن كانت منهجية عفوية في استخدام هذا النوع من التأويل، إلّا أنّها أتقنته.

ثمّ ينتقل إلى خطاب من نوع آخر، قريب من الأول وهو الحديث الشريف، فاختار هذا الحديث "قال النبي صلى الله عليه وسلم {حُجِبَت النار بالشهوات، وحُجِبَت الجنّة بالمكاره}...وسنقف فيه على تقابلات منطلق وأخرى هدف كثيرة. فأما المنطلق منها فهي: ذم الشهوات (مقابل) ميل النفوس إليها. الحض على الطاعات (مقابل) كراهية النفوس لها...وأما التقابلات المعنوية العميقة التي يستهدفها التأويل فمن قبيل: الأعمى عن التقوى يرى الشهوات ولا يرى النار التي هي فيها (مق) عمى بصري وعمى قلبي. ويقابل ذلك المبصر

بقلبه وعينيه فهو يرى المكاره ويرى الجنة... "[1]وحاولت تقديم هذا المثال للقارئ، حتى يتسنى له فهم عملية التأويل التقابلي

بشكل أقرب. وجاء بمقولة لعلي بن أبي طالب، وطبق عليها نظريته، إلى جانب بعض الأبيات لأبي الطيب المتنبي.

وقد كان للخطاب الروائي حظّه هو الآخر من هذا المشروع، وقد اختار رواية "عزازيل" ليوسف زيدان؛ وذلك -حسب الكاتب- يحقّق مبدأ التقابلات، ويساعد المؤوّل على إعادة إنتاج هذا الخطاب وفق آليات اشتغال التأويل التقابلي، وهذا لأنّ الرواية تعتمد بالأساس على الخطاب الوصفي، خطاب ينطلق من صور في ذهن الكاتب حاول تجسّيدها داخل خطابه، بما يشبهها أو يقاربها، وهذا ما أعطى لهذا الخطاب جمالية تعتمد على اللغة بشكل أساسي، فاستطاع بازي الوصول من التقابل المنطلق في الوصف إلى التقابل الهدف.

وأراد بهذا أن يصل إلى أن مبدأ التقابل حاضر في كل الخطابات، ويرى فيه قاعدة أساسية بحكم تجاربه على مختلف النصوص، و لا يرى أن التقابل يتحقق في التشابه أو التماثل فقط، بل في التضاد أيضاً.

وفي الأخير يمكنني القول أنّه حاول العمل من خلال هذين الكتابين، على مشروع نقدي عربي، يستمد وجوده من التراث النقدي العربي القديم، دون أن يهمل ما يأتي من الغرب، وتفادى الوقوع في شباك النقد الغربي، وعرف كيف يقيم جسراً بين النقد العربي القديم، والنقد الغربي، وقد انتقد هذا السقوط الكثير من النقاد العرب أمثال عبد العزيز حمودة في كتابه "المرايا المحدبة"، لقد أثار هذه الإشكالية في هذا الكتاب، معيباً على النقاد السير على خطى الغرب، مما أدى إلى ظهور دراسات لا تشبهنا ولا تمثّل أدبنا، مجرد رسومات ومثلثات، ولغة مراوغة في النقد لا يكاد يفقهها القارئ؛ وذلك لاعتبار الناقد وسيطاً بين النص والقارئ[2]، وهذا ما يفرض عليه أن يقرأ هذه النصوص وفق بيئتها لا وفق البيئة الغربية، وهذا ما عمل عليه بازي، من خلال هذه النظرية.

[1] محمد بازي، نظرية التأويل التقابلي، ص246.

[2] ينظر، عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة، من البنيوية إلى والتفكيكية، عالم المعرفة، الكويت، 1990، ص24/22/17.

الخاتمة:

- ✓ حاول بازي التأسيس لمشروع نقدي جديد يستمد وجوده من الخطاب النقدي العربي القديم، ومثيله الغربي، لإيمانه بأن الناقد يجب ألّا يجعل آليات اشتغاله مبتورة، ورأى أنه بإمكان المؤوّل أن يستعين بالآليات التي تخدم تحليله للنص.
- ✓ حاول تطبيق نظريته على العديد من النصوص، وبأنواع مختلفة، حتى يُثري هذه النظرية، ويحيط بكل الآليات الممكنة في التحليل.
- ✓ قدم بعض الاقتراحات للناقد العربي، بأن يتصالح مع الخطاب النقدي العربي القديم، ويحاول أن يشتغل عليه، ذلك لغناه بالمعارف، والنظريات المدفونة داخل ثنايا الكتب، تنتظر من يعيد إحياءها، ولا يبقى حبيس الترجمات الغربية التي اهتمت بهذا التراث، لأنّه يرى بأنّنا أولى بتراثنا وأقرب لفهمه من غيرنا.
- ✓ قدّم في آخر الكتابين أنواع كثيرة للتقابل الموجودة في مختلف المجالات، يفتح بها للقارئ مسالك ورؤى يمكن أن تكون بداية لمشاريع مماثلة لمشروعه.
- ✓ وفي الأخير رأينا في هذا المشروع النقدي الجديد، خطوة جريئة حاول محمد بازي من خلالها أن يقدّم للنقد نوعاً من التأويل كان موجوداً في كتب الأقدمين، كآلية إجرائية في تحليل النصوص، كما رأينا مع الغزالي، إلّا أنّها لم تكن حاضرة كنظرية قائمة بذاتها، لها أسسها وقوانينها، فهي من بين العديد من النظريات التي أُهملت لقلّة الاهتمام والحفر في طيّات الكتب العربية القديمة؛ لذا فهذا المشروع النقدي يعطي للناقد العربي أملاً في الدفع بعجلة النقد قُدُماً، والتأسيس للنقد العربي من جديد، وإعادة إحياء النقد العربي القديم.